البحرين وعلاقاتها الخارجية إبان القرن السادس عشر

صحيفة أخبار الخليج، :٨ نوفمبر ٢٠٠٩

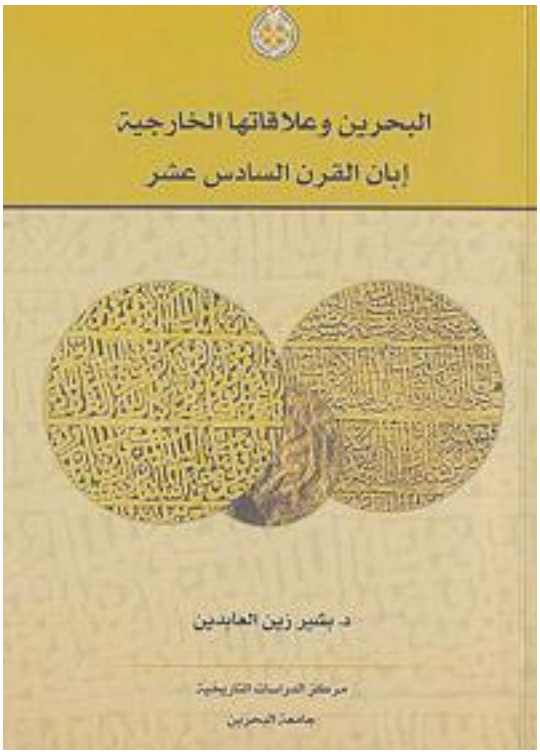

صدر حديثاً، كتاب بعنوان "البحرين وعلاقاتها الخارجية إبان القرن السادس عشر"، من تأليف الدكتور بشير زين العابدين ، وهو ثاني إصدار لمركز الدراسات التاريخية الذي تأسس قبل سنة من الآن.

والكتاب الجديد، يعد مكملاً ومضيفاً، لعدد من المؤلفات والدراسات التي تناولت حقبة السيطرة البرتغالية على مداخل الخليج ومخارجه، وحكم الجبور ومن بعده جلال الدين شاه وحفيده ركن الدين على البحرين.

د. بشير زين العابدين يبدأ من حيث انتهى الآخرون، فهو يحاول في هذا الكتاب بعد وضع خريطة عامة لمصادر تاريخ البحرين في القرن السادس عشر، وهي مهمة أنجزها سابقاً على مستوى تاريخ البحرين الحديث والمعاصر عن طريق تقسيم هذه المصادر إلى مصادر برتغالية وهولندية وبريطانية وفرنسية وأمريكية وروسية وعثمانية فضلاً عن المصادر الإقليمية والمحلية، يحاول أن ينجز مهمته عبر تكثيف المادة ما استطاع، ويكون في الوقت نفسه الشاهد الناقد الذي يغربل المعلومة ويزنها بميزان المعلومات الأخرى، فينقد تلك الرواية، ويفحص ذلك الخبر، ويمحص فيما بين يديه من مواد ووثائق وكتابات سابقة، بدءاً من كيفية رسم الاسم بالعربية حتى الخلاصات العامة.

إذاً، يضع د. زين العابدين برسم القارئ تقديم خلاصات مكثفة من قائمة طويلة من المصادر والمراجع، لا تغنيه عن العودة إلى المظان الرئيسة بطبيعة الحال، بقدر ما تضع بين يديه مختلف الروايات وما توصل إليه الباحثون، مع الدخول في مساحات التصويب والتدقيق والمراجعة النقدية بالإضافة إلى اعتماد الكتاب على مادة مصدرية محلية لم يسبق نشرها من قبل، متمثلة في مجموعة نادرة جداً من وثائق المتحف الوطني، بالإضافة إلى الاعتماد على مصادر بحرينية أخرى كالنقوش على الصخور، والعملات المحلية، والمادة الأدبية، وهو أمر انفرد الكتاب به عن غيره من المصنفات التي تعرضت للتأريخ لمرحلة القرن السادس عشر.

قبل ذلك، يبدأ الكتاب بمقدمة كتبها رئيس الجامعة د. إبراهيم جناحي جاء فيها: "ويمثل هذا الجهد حلقة من مشروع متكامل تسعى جامعة البحرين إلى تحقيقه، ويهدف إلى دعم البحث العلمي في شتى مجالات المعرفة، ورفد الساحة

الثقافية في البحرين بمصنفات تتسم بالمنهجية العلمية الرصينة، وتتواكب مع التطورات الكبرى التي تشهدها المملكة منذ "انطلاقة المشروع الإصلاحي لجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة في مطلع الألفية الثالثة.

تشمل صفحات الكتاب الـ 323 ستة فصول، تبدأ بتعداد مصادر تاريخ البحرين في الفترة المدروسة، فالأوضاع العامة في منطقة الخليج العربي في الفترة ذاتها، بينما الفصل الأخير مخصص لعرض بعض الوثائق التي تمت الاستفادة منها المرة الأولى. وفي الفصول الثلاثة التي تتوسط الكتاب يتم تفصيل الحديث حول السنوات الأخيرة من حكم الجبور، ومن ثم البحرين تحت حكم جلال الدين مراد محمود شاع، فمجيء البرتغاليين، فالعودة من جديد. وتغطي هذه التقلبات والتحولات مدة قرن بتمامه، عنوانه الرئيس حكم جلال الدين الذي جاء في إثر الجبور وجاء بعد رحيل البرتغاليين، فاحتل معظم سنوات هذا القرن الأكثر تقلباً في التاريخ الحديث لجزائر البحرين.

وبعد فرش مختلف المصادر التي يمكن العودة لها واستقاء ما يخص المرحلة، يقوم المؤلف بالسياحة على ضفاف هذا القرن في منطقة الخليج العربي، لتقديم تصور واضح حول مجريات الأمور والأحداث وقتذاك، وخصوصاً أن القرن المبحوث شهد صعود قوى إقليمية ووجود منافسين لها من القوى الأجنبية. فالقرن السادس عشر تقاسمت القوة فيه الصفوية الصاعدة والبرتغالية القادمة من بعيد بعيد سلسلة الكشوف الجغرافية ووصولها إلى الهند، مع منافستهما الإمبراطورية العثمانية القريبة جداً من البحرين وذات الامتداد من البصرة حتى الأحساء. وداخل الحدود كان القرن مسرحاً لحلبة صراع دام في عمان بين قوى داخلية متنافسة. وفي هذا المثلث الذي حاول إحكام السيطرة على مياه الخليج العربي وبرها تبدأ فصول الحكاية مع الغزو البرتغالي وأهدافه المتمثلة في إحكام السيطرة على الخطوط البحرية، والتحكم في التجارة، بما في ذلك دك مملكة هرمز النشطة التي دانت لها حركة التجارة بل دانت لها الإمارات المختلفة قبل قدوم الفونسو البوكيرك أو الفونسو دلبوكيرك - كما يفضل المؤلف - الذي نجح على رأس حملة حربية في دك كل الحصون وحرق الأساطيل والتنكيل بالأهالي بممارسات دموية عرف بها البرتغالي في أوج قوته قبل أن تخفت وتذروها الرياح الاسبانية، والسيطرة على الساحل الغربي للخليج بدويلاته وإماراته. ومن هذا المدخل الذي أزيحت بموجبه مملكة هرمز إلى الأبد كان صوت الدولة الصفوية يعلو شيئاً فشيئاً لهذه القوة الإقليمية الناشئة على الساحل الشرقي التي كانت مشغولة بحساباتها الداخلية، وحاولت في وقت لاحق الاقتراب أكثر فأكثر من البرتغالي بعد أكثر من معركة مع العثمانيين ثم الابتعاد عنه لانتفاء المصلحة. ومن بعيد من الأستانة كانت الدولة العثمانية تناوش مع إظهار اهتمام بالبحرين مع محاولة وحيدة لبسط السيطرة والنفوذ لم يكتب لها النجاح، وعلى الرغم من خلع لقب صنجق على حاكمها، كاعتراف رسمي بسلطته وهو لم يرق لقائد عثماني ثانوي فلم يعر الأمر بالا.. وبعد هذا التطواف يخلص المؤلف إلى القول "ولعل النقطة الأساسية التي يجب أن يضعها أي مؤرخ للبحرين في اعتباره هي أن البحرين كيان جزري لا يصح أن ينظر إليه بالطريقة التي تدار بها الأقاليم البرية؛ حيث إنه يصعب إخضاع الكيانات الجزرية لاحتلال عسكري طويل الأمد". وهو الأمر الذي أكده في فصول الكتاب التالية، إذ أشار في مناسبات عديدة إلى أن البحرين طوال القرن السادس عشر تعرضت لعدة غزوات من قبل بعض قوى المنطقة إلا أنها لم تخضع لأي احتلال أو حكم أجنبي على الإطلاق؛ فقد تمتعت بحكام محليين طوال فترة القرن السادس عشر ومن دون أي انقطاع يذكر.

ومن التطواف العام يبدأ د. بشير زين العابدين الدخول أكثر فأكثر في صلب موضوع الكتاب، ففي الفصل الثالث من الكتاب المعنون بـ "البحرين في السنوات الأخيرة من حكم الجبور 1500 - 1529م"، وفي هذه السنوات تتعرض للعديد من الحملات العسكرية، كما أدت التغييرات السياسية التي شهدها أرخبيل الجزر إلى إطلاق اسم البحرين نهائياً عليها، بعد انفصام عرى الارتباط الكلي مع الإقليم المجاور الذي كان تحت بسط وسيطرة العثمانيين. ويستهل المؤلف هذا الفصل بوصف البحرين في القرن السادس عشر من خلال وثائق المرحلة، وما تمتاز به أراضيها وبحارها من خيرات، وصولاً إلى تقديم نبذة حول حكام البحرين من الجبور الذين انتهى حكمهم للبحرين بحلول نهاية العقد الثاني من ذاك القرن. وفي هذا المقام يكشف الباحث في توصيف الحملات البرتغالية على هذه الجزر التي شهدت أكثر من غزوة إلى أن تم إقصاء الجبور نهائياً، وتحول السلطة عنهم بعد شد وجذب وصمود وممانعة وكر وفر في أربع حملات برتغالية هرمزية مشتركة إلا أن الغزوة الخامسة كانت مهلكة لهم وللبرتغاليين سواء بسواء.

لقد كانت السنوات الأولى من القرن السادس عشر إيذاناً بتحول دراماتيكي من أبرز نتائجه استقلال الأرخبيل الذي يشكل بمجموع جزره البحرين عن الإقليم المجاور، ثم أفول حكم الجبور، وتسلم جلال الدين مراد محمود شاه دفة قيادة البحرين حتى الثلث الأخير من القرن الذي شهدت فترة حكمه الطويلة استقراراً ونشاطاً تجارياً وقاد البحرين بوصفها قوة محايدة.

وأهم ما يميز هذا الكتاب علاوة على التكثيف والاختصار، التدقيق في العديد من المعلومات التي ثبتها بعض المتون، ولاسيما المصادر المحلية منها، بالاعتماد على الوثائق الأخرى من مصادر وأراشيف القوى المتصارعة آنذاك، فالمؤلف ينفي أي بسط أو نفوذ للصفويين على البحرين في القرن المذكور، ويعارض بعض الروايات المحلية كما تمثل ذلك عند ناصر خيري وسواه حول الإسهامات البرتغالية، مفنداً أي مديح لهذا الاستعمار بشواهد أمنتها له الوثائق التي استند إليها.

المصدر:

http://www.akhbar-alkhaleej.com/11552/article/353715.html